سلسلة ذخائر التراث الأدبي المغربي (12)

ديوان أحمد بن عبد المنان

أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد المنان

الأنصاري الخزرجي المكناسي

(ت 792 هـ)

بسم الله الرحمان الرحيم

قال رحمه الله في مدح أمير المومنين أبي عنان فارس

إليك وألا لا طوى الركب فدفدا * عليك وإلا ما الثناء مرددا

وعنك وإلا ما المآثر والعلا * ومنك وإلا ما المواهب والجدا

أفارس يا أعلى الملوك مناقبا * وأعلاهم كعبا وأطولهم يدا

ملكت فأوسعت البلاد وأهلها * امانا ومنا بالحماسة والندا

وصلت شديد البأس لاشيء تبتغي * سوى أن تقيم الحق في الأرض مرشدا

توجهت منها رحلة سام ذكرها * جفون العدا بالشرق يوما مشردا

وأقصرته عن عزمة لك لم تكن * لتكفل قطرا ثم تتركه سدا

ولاقصد إلا أن تقيم على التقى * قواعد هاتيك البلاد وتقعدا

وأن الذي يممتها قصد وجهة * ليصحبك التأييد دابا مؤيدا

فتأخذ بالثأر العداة وإنها * لعادة صديق منك تعرفها العدا

ولو رزقت فضل الخطابة بقعة * بها نحن قبل من ذاك مشهدا

وفتكة بأس منك لم يش قصدها * لهام العدى من كل أشوس أصيدا

ومهما توخى النصر جيشك منهما * براياته أنى توجهت منجدا

فثق بالذي منه تعودت أنه * (لكل امرئ من دهره ما تعودا)

ومابؤحت آيات سعدك تجتلي * لديك إياه النصر مثنى وموحدا

وحسب علاك اليوم فالا على الظبا * ضمان بأن تجلى بشائره غدا

بجند أمير المؤمنين وخيله * وسلطانه أضحى معانا مؤيدا

ليهن امير المؤمنين ظهوره * على أمة كانت بغاة وحسدا

وقال في التهنئة بفتح أبي عنان لمدينة قسنطينة

هي السعد الاتي علاك لها قطب * هو النصر سام شهبه الدهر لا تخب

هو الفتح سنته السعود فلم يكن * ليشرع فيه السمر أو تشهر القضب

ستتلوه أبكار الفتوح وعونها * كما جاء أثر الواحد المفرد الركب

وعادت من عودته نصر دينه * لديك من الألاء ما وردها غب

وسل بلطيف الصنع في امر فتحها * قسنطينة لما تسامى بها العجب

سموت إليها في جيوشك دارعا * كانك بدر التم تكنفه الشهب

تجرر زهوا ذيل أفخم فيلق * يضيق به في المهمة المنزل الرحب

بعيد مجال النقع, مقترب القنا * تزار في انحائه الأسد الغلب

رأى منه حزب البغي ما جمع الهدى * وأبصر منه الشرق ما أنجب الغرب

وقد قدمت عبس القباب يحفها * أسود وغى عاداتها الطعن والضرب

فأذعنت الأعداء ذلا وأيقنوا * بأنك من تدنو له العجم والعرب

وقد رتق الرمح الرديني ظاميا * لورد نفوس القوم واستشرف العضب

وعاينت الأسد النقاد ولا حمى * هنالك إلا ما نما الصخر والترب

وكادت بعقبان السوابق نحوها * تطير إذا ما أعوز الهد والنقب

مصاعبة لولاك عزما حميتهم * قسنطينة ما غرهم سمكها الصعب

ولكن شكا خطبا لحلمك أهلها * وأموك كهفا فانجلى عنهم الخطب

جنحت إلى الرحمى وكنت الذي عفا * وأرضاك ما ترضى صنيعا به الرب

وأوسعتهم بالحلم والحلم واسع * لديك لك الحسنى وإن عظم الذنب

ولامت شعابا من قسنطينة اعتدى * وما كان يرجى أن يلم بها شعب

ولم يغمر الأبطال ظل قبابها * إلى أن خلا من مالكي امرها الشعب

ولم يلق عنك الدرع حتى تقدما * من الذل في درعين صاغهما الرعب

وأمسكت كما أملت عدلا ورحمة * تمد بها خصبا إذا صوح الخصب

هناء بها أم المعاقل منعة * قسنطينة ما أن يراع لها سرب

تعاظم كفرا أن يقال لها حمى * وتانف زهوا أن يرام لها قرب

عجبت لها عزت لصحبتها الهوى * وشان الهوى أن لا يعز لها صحب

ستقدم بالبيعات يا ملك الهدى * عليك بها في وفدها الرسل والكتب

وتحيا بك الأوطان شرقا ومغربا * ويشملها من جودك الوكف والسكب

بقيت تزين الملك والدين ما انجلى * بعدلك أو إحسانك الجور والجدب

ولازلت ترقى ما حكى البدر كاملا * محياك أو ضاهت مواهبك السحب

وقال رحمه الله عند قدوم أسارى النصارى، ووفود البشائر التي أقبلت تتبارى

أتاك بسامي الفتح سعد ملازم * أفاعيله الا ما آدعته الصوارم

وجاءك نصر بالنصارى أذلة * ومثلك من ذلت إليه الأعاجم

بقيت توافيك البشائر جمة * وتعرض ارسالا عليك الغنائم

ولازلت بعيا (كذا) نائر بصفات ما * يوافيك من وفد الفتوح وناظم

ودمت عزيزا حظك النصر دائما * وحظ العداة المارقين الهزائم

إذا عز هذا الملك عز به العلى * وعز به دين الهدى والمكارم

وأنشد رحمه الله لنفسه، ورفعها ليلة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم من عام سبعة وخمسين وسبعمائة، لأمير المؤمنين المتوكل على الله أبو عنان فارس وعارض بها قصيدة الشيخ الفقيه الإمام العالم الصوفي المحقق أبي عبد الله محمد بن خميس الحجري التي أولها:

أما المشيبُ فقد لاحتْ لوامعه فما لدمعكَ لا تهمي هوامعهْ

فقال – نسأ الله في أجله:

هو العقيقُ وما ضمت أجارعهُ كما عهدناهُ أمْ أقوتْ مرابعهُ

وهل تغير بانُ الحيّ بعدَ نوى أهليه أمْ روضتْ خصباً أجارعُهُ

ديارُ سلمى سقاها من ديارِ هوى من صيبِ الغيثِ هاميه وهامعهُ

قفا بها إنّ عهداً للطلولِ على دمعي السكيبِ بأن تجري دوافعهُ

وهل وقوفُ محبٍ بالطلولِ على إثر الخليطِ الذي قد بانَ نافعهُ

لله عهدكَ يا ربعَ الألى ظعنوا أيامَ روضكَ غضُّ الدوحِ يانعهُ

أيامَ ظبيكَ لم تقفر مراتعهُ منهُ، وبدركَ لم تظلمْ مطالعهُ

ودار سلمى بجرعاءِ الحمى كثبٌ ورودُ الوصل لم تحظر مشارعهُ

لعمرُ سلمى لقدْ بانت وما تركتْ سوى جوى يسفحُ الأضلاعَ سافعهُ

ومنيةٍ يترجاها على طمعٍ منه ويأبى مشوقُ القلبِ جازعهُ

في ذمةِ الله قلبٌ كلّما ذكرت سلمى تغصُّ به خفقاً أضالعهُ

وإن سلمى لظبيٌ في النفارِ وفي طرقِ الملالةِ قدْ أعيتْ منازعهُ

ماذا تجرعت من مرّ الغرام هوى يا قلب فيهِ، وماذا أنتَ جارعهُ

أبيتُ ليلي من جراهُ مكتحلاً بالسهد وهو نؤومِ الجفنِ هاجعهُ

أدافعُ الوجدَ في سلمى فيغلبني والوجد لا شكَّ مغلوبٌ مدافعهُ

أخادعُ القلبَ عنها وهو يخدعني كذلكَ القلبَ مخدوعٌ مخادعهُ

ويح المحبُّ لقد نمّت شمائله بحبه فهو خافي السرّ ذائعهُ

وأيُّ واشٍ به في الحب يكذبهُ سهادهُ أم ضناهُ أم مدامعهُ

أن نفثةٌ قذفَ الوجدُ الصميمُ بها طيَّ النسيبِ وقد رقتْ وشائعهُ

هل تعلمان له راقٍ فيطمع في برء أم الحبُّ داءٌ عزَّ دافعهُ

أو ملجأً غيرَ أعلى الخلقِ منزلةً يومَ الحسابِ وقد راعت روائعهُ

خير البريةِ أولاها وآخرها وحائز الفضل دانيةِ وشاسعهُ

يا ليلةً أسفرت عنهُ ظفرت علا بالفخر قد ملأ الأقطارَ شائعهُ

ضاءت لمولدهِ الآفاقُ واتضحتْ سبلُ الرشاد بما جلّت نواصعهُ

وأصبحتْ صورُ الأصنامِ من وجلٍ والكلُّ ناكسُ أعلى الهامِ خاضعهُ

وأمسكَ النّهرُ خوفاً عند ذلك إذ أحسّ بالجود قد فاضتْ ينابيعهُ

وأخمدت نار كسرى وهي ما علموا وقودها قبل وارتجتْ مصانعهُ

وكم دليل له من قبلِ مبعثه وبعدهُ صدع الظلماءَ ساطعهُ

كآيةِ الغارِ لما قامَ ناسجهُ من دونه وأوى للوكرِ ساجعهُ

وأعلمته ذراعُ الشاةِ مثقفةً بسمها ليتهُ (يفتض) ناقعهُ

والضبّ والذئبُ تصديقاً له نطقا والطفلُ أفصح لم تفطمْ مراضعهُ

والشمسُ والبدرُ هذي ردَّ غاربها بعد الأفولِ وهذا شقّ طالعهُ

والماءُ فاضَ معيناً من أصابعهِ وهل بحورُ الندى إلا أصابعهُ

وعادَ في الروعِ جذلُ النخلِ من يديهِ باللمسِ أبيضَ لا تنبو مقاطعهُ

والغصن لما دعاه جاء مؤتمراً يخطُّ في الأرضِ لا شيء يمانعهُ

والجذعُ أسمع ترديدَ الحنينِ لهُ لو لم يفارقْهُ لم يسمعهُ سامعهُ

آياتُ صدقٍ جلتْ علياءَ منتخبٍ لم يطلعِ الكونُ من خلقٍ ضارعهُ

مؤيدٍ بجنودِ اللهِ يكنفه هادٍ إلى الحقّ مهديّ متابعهُ

مخصص بمزايا القربِ طولع من معارفِ الغيبِ بالمختومِ طابعهُ

وأوتي الكلمَ الوضاحَ حكمتهُ ولامرئٍ قبلُ لم تجمع جوامعهُ

ما وصفُ فضلكَ يا أعلى الورى شرفاً بممكنٍ فيطيل القول واضعهُ

وكيف يدركُ أوصافاً وقد فرعت مرقي العقولِ وإن جلت فوارعهُ

يا صفوةَ اللهِ والداعي برحمتهِ إلى النجاة بما سنت شرائعهُ

دعاء محتقبٍ ذنباً أضيقَ بهِ ذرعاً فأما حماكَ الرحبِ مانعهُ

لولا تمسكهُ قدماً بحبكَ ما إنْ كادَ يطمع في الغفرانِ طامعهُ

حبٌ إليكَ – رسول الله – أخلصهُ قلبٌ تقلبهُ شوقاً نوازعهُ

كن شافعاً لي أسعد بالمفاز غداً فما السعيدُ سوى منْ أنتَ شافعهُ

يا أكرمَ الرُّسل يا أعلى الأنامِ عُلا يا خيرَ منتجعٍ ترجى نواجعهُ

أعللُ النفس تعليلا بقربكَ لأ. . . . سكني أرى القربَ قد سدت ذرائعهُ

ولي على الدهر دينٌ لثُم تربكَ لا سكن التقاضي تلويهِ موانعهُ

ما كنتُ آمل لولا الخليفة لا زالتْ تؤملُ للحسنى صنائعهُ

إمام عدلٍ وإحسانٍ سمت شرفاً فروعه وزكتْ طيباً منابعهُ

س عصبيةٍ أثلوا المجدَ التليدَ علا ودوخوا الكفرَ فاستخرت بواقعُه

يا آلَ يعقوبَ أعلى اللهُ ملككم فهو الملاذُ الذي ترجى مفازعُه

ما آلَ يعقوبَ إلا مرتقى شرفٍ سامي النجومَ فقاتَ النَّجمَ فارعُه

بنى له المجدَ عبدُ الحقِّ معتلياً وجاء يعقوبُ للغاياتِ تابعُه

ويوسفُ ثم عثمانٌ ونجلهم عليٌّ معلي منارِ المجد رافعُه

وفارسُ البأسِ والإنعامِ منْ علمتْ به الملوكُ، منزلُ الشركِ قامعُه

مؤيد الأمرِ لم تحجمْ صواهله يوم النزالِ ولم تكهمْ قواطعُه

ليثُ الحروبِ إذا ماجتْ كتائبها غيثُ الجدوبِ وقد راعتْ طلائعُه

سلْ كلَّ قطرٍ بما في نداهُ بهِ إذ أخلفَ القطرُ وأعيت مواقعُه

والبدو والحضر كم أحييتْ مواهبُه والطيرَ والوحشَ كم أردتْ وقائعُه

غمر النوالِ عطوفٌ محسنٌ جبلتْ على المكارمِ والرُّحمى طبائعُه

ما زاده اللهُ منْ عزٍ لعزته إلا وزادَ لهُ فيهِ تواضعُه

أبا عنانٍ لكَ الخيراتُ من ملكٍ عاصيه قدْ خابَ لمّا فازَ طائعهُ

أعليتَ دينَ الهدى لازلتَ معتلياً فعزّ أهلوه واستخزى مماصعهُ

ومجتدٍ أنتَ معيبهِ وجابرهُ ومعتدٍ أنتَ مقصيهِ ورادعهُ

وجنحِ ليلٍ تجلى عنكَ فاحمهُ وأنتَ قائمهُ براً وراكعهُ

وموسمٍ جلَّ قدراً باعتناكَ بهِ راقتْ لياليهِ وازدانتْ سوابغهُ

يذكّر الخلد، نال الخلدَ منزلةً مقيمهُ يبتغي الزلفى، ورافعهُ

تمتْ بسعدكَ فيه كلُّ معجبةٍ وانقادَ كلُّ بديعِ الحسنِ رائعهُ

وآلةٍ للمواقيتِ استقلَّ بها صنعٌ تفوتُ النُّهى لطفاً صنائعهُ

أبياتها عدُّ أبراج السماء، ولا قطبٌ ولا فلكٌ تدري مواضعهُ

يجري الهلال عليها جريها أبداً على المنازلِ صنعٌ فاقَ بارعهُ

وفي البيوتِ حوارٍ كلُّ واحدةٍ منهنَّ خصتْ بميقاتٍ تطالعهُ

حتى إذا جدّ إسراعاً لوجهتهِ وحمّ منهُ فراقٌ حانَ واقعهُ

وأذن الطيرُ من أعلى مراقبهِ ببينهِ معرباً عن ذاكَ قارعهُ

ثارتْ هنالكَ توديعاً له ودنتْ إلى الفناء على ذعرٍ تشايعهُ

وفي اليمين كتابٌ باسم موقتها إلى الإمام وقد أوصتْ تبايعهُ

وشامخ المرتقى آوى لأفرخهِ بالوكر وهو أمينُ السرب وادعهُ

أتيح عمداً له مستشعٌ سبط رحبُ القذالِ صقيلُ الطرف لامعهُ

أحوى الأديم يجاري دونما قدمٍ هوجَ الرياحِ، حديدُ الناب قاطعهُ

جمُّ التقلب لم تؤمن غوائله غدراً، وتحذر من ختلٍ خدائعهُ

يسعى له الحين بعدَ الحين يرزؤه ثكلاً فيصفر خوفاً أو يقارعهُ

كذلك الليل لا ينفك مختلفاً إليه وهو عن الأفراخ دافعهُ

ومثله لأخيه ينتحيه وما إن منهما ليله إلا مقارعهُ

كأنما الصلّ أمسى ممسكاً فإذا ما ساعةٌ ذهبتْ فثارت مطالعهُ

وظنها آخر الساعات قد أذنتْ بفطره فسما للفرخ لاسعهُ

رياضُ حسنٍ بدا لولا سعودكَ لم تستجلَ يا ملكَ الدُّنيا بدائعهُ

في ليلةٍ آنستْ مرأى ومستمعاً لاشتتَّ من شملها بالأنس جامعهُ

نودّ فيها – وإن لم نعطَ ذلكَ – أن لو عرّس الليلُ أو مدّتْ هوازعهُ

قد حجب السجف عنّا شهبها وبدتْ كواكبُ الشمعِ إذ صفت مشامعه

ولم يكنْ يا أمير المؤمنين بها إلا محياكَ من بدرٍ نطالعهُ

بقيتَ للدين والدُّنيا تزينهما والملكِ ما صدع الإظلامَ صادعهُ

وهاكها من خبايا الدهرِ قافيةً تزهي على الدّر قد صفتْ رصائعهُ

أهداكها فائقُ الإبداع باسمكَ ما رقتْ مباديه أو رقتْ مقاطعهُ

وقد تعمد فيها وصفَ معجبةٍ أجادَ في صنعها لا شكَّ صانعهُ

لم ينعتِ البعضَ منها عن مشاهدةٍ لكن بما هو في الأخبارِ سامعهُ

فإن أصابَ فذاكَ اليمنُ سددهُ قدماً وإن لم يُصب فالحلمُ واسعهُ

يتلى بحمدكَ من أمداحه كلمٌ يبلى الزمانُ ولا تبلى وشائعهُ

لو مرَّ بابن خميسٍ وفده لدري   بأنَّ ثمّ خميساً لا يماصعهُ

قضى له الدّهر تأخيراً ولا عجبٌ   تأخُّرُ الشمسِ عن فجرٍ تتابعهُ

وأنشد أيضاً لنفسه يمدحه، ويصف قتل الاسد بين يديه بقصره، والثور المقاتل للاسد، والأكرة، والحائل، وغير ذلك مما يلعب به مع الأسد:

أسرى فهيج لاعج البرحاءِ برقٌ أضاء له من الجزعاءِ

أهدى – وقد نام الخليُّ عن الحمى – خبراً وطارَ بطارقِ الإغفاءِ

وحكى به أنّ الثغورَ بواسمٌ وضاحةٌ والبيضُ ذاتُ مضاءِ

هرقَ الوميض وإنّ في كنف الحمى لشبيههُ بالجونةِ الغراءِ

تجلو عن البدرِ اللثامَ وإنما تفترُّ عن بردٍ وعن صهباءِ

عبثَ الصَّبا بقوامها عبثَ الصَّبا بالغصنِ عُلَّ بواكرَ الأنداءِ

زارت وجنح الليل معتكرٌ ومن دونِ الزيارةِ ملتقى الأعداءِ

والزُّهرُ كالأزهارِ إلا أنَّها نثرت خلال بنفسجِ الظَّلماءِ

والبدرُ يسبحُ في الغمامِ كأنَّهُ مرآةُ هندٍ وسطَ لجةِ ماءِ

ضاءت بشهبِ حليها شهب الدُّجا وأتتكَ تمشي مشيةَ الخيلاءِ

أنّي أمنتَ – هديت – غائلةَ السُّرى والواشيينِ: تـأرجٍ وضيـاءِ

لم ترهبي الآساد غلباً، والظُّبا قضباً، وجبتِ مضلةَ البيداءِ

قالتْ: أما أحييتُ منكَ مُتيماً أنّي أضلُّ، ودنت بالإحياءِ

أيرى ضلالُ والخليفةُ فارسٌ في الأرضِ أن يلفى على الغبراءِ

يمتُ علياءُ فما من منذرٍ أخشى ولما أرجُ ماءَ سماءِ

صرافُ عاديةٍ، مزيحُ ضلالةٍ فراجُ داهيةٍ، عظيمُ غناءِ

تجلو الأسرَّةُ منهُ بدرَ مكارمٍ ويفيضُ منهُ الجودُ بحرَ عطاءِ

وتهيجُ منهُ الحربُ ليثَ ملاحمٍ ويقرّ منهُ الحلمُ طودَ علاءِ

هلا سألتَ بهِ الغيوثَ فإنهُ مهما استهلتْ فاضحُ الأنواءِ

وسلِ الليوثَ تجبكَ صدقاً إنها أدرى بفتكهِ عضبهِ المضاءِ

للهِ يومٌ في حماهُ مفضَّضُ الـ إصباحِ منهُ، مذهَّبُ الإمساءِ

وعتغ به الأبصارُ بين عجائبٍ رقتْ فراقتْ كل طرفٍ راءِ

وأجشّ منهرتِ اللها نهد الطلا عبلِ الجزالة محكم الأنساءِ

طاوي الحشا، رحب المقدم، عابسٍ متطلع عن جذوتي ظلماءِ

بل كوكبينِ تقارنا بجبينهِ لحدوثِ ما نبأ من الأنباءِ

وأرى الأهلةَ في البدورِ وإنما يعتدُّها للأزمةِ الدَّهماءِ

بفتـرِّ لا لتبسمٍ يعتاده ويعانقُ الأقرانَ لا لإخاءِ

قد طالما سهرتْ مخافةَ بأسهِ دون الخلالِ طلائعُ الأحياءِ

قذفتْ به الأقدارُ بين مخاتلٍ ومكابرٍ ومناجزٍ ومناءِ

رفعوا لموقتِ حتفهِ كرةٍ فلمْ تبرز له إلا طويل شقاءِ

جاءوا بها شمساً تيمّمُ بيتها منهُ، وإنّ الليث بيت ذكاءِ

عجباً لها جازتْ إليه النور لم تجنح إلى السرطانِ والجوزاءِ

ومعدلو الشبكاتِ بعد تردُّدٍ حكموا عليه بشدةٍ ورخاءِ

ألقوهُ في التابوتِ ثم تعمدوا إرسالَهُ، أبقوهُ لا لبقاءِ

لكنَّ أربابَ الصفائحِ صمَّموا فقضوا بداهيةٍ لهُ دهياءِ

هذا وقد طلعتْ بوشكِ حمامِهِ شيبُ الأسنَّةِ، حمّةُ الأضواءِ

يا نصبةً حكمتْ على ليثِ الشَّرى قسراً بقضِّ المتنِ والأحشاءِ

لو لاحظتهُ عنايةُ القمرِ الذي في البرجِ أمَّ طارقَ الإزراءِ

. . . لما قضى إسلامُهُ للسُّمرِ والخطيةِ السمراءِ

والحارثُ الفتّاكُ بالأسدِ الذي لم يبقِ إشفاقاً على الآباءِ

طلعتْ بمفرقِهِ الأهلَّةُ إنَّها أبداً لها منهُ محلُّ ثواءِ

يا ليثُ لا تأمنهُ ختلاً إنهُ ليكرُّ بعد تحيزٍ وثناءِ

لا يطمعنكَ إنْ أجدَّ منكباً لما دلفتَ لهُ حثيثَ عداءِ

ما ذاكَ إلا لو علمتَ تأثماً من قطعِ أرحامٍ وسفكِ دماءِ

وسلِ الجواميسَ البهيمَ أديمُها تخبرْكَ فهي لهُ من الشهداءِ

فلقد شهدنَ أخاكَ لما أمهُ كالسهم قاسمه مدى المثناءِ

أنحى عليهِ بصدمةٍ ثوريةٍ تركتْ أسامةَ واهيَ الأنحاءِ

وبطعنةٍ نجلاءَ أنهر فتقها تحت الأديمِ عريضةٍ جوفاءِ

شكت فريضتهُ فولى ناجياً يبغي النجاة ولات حين نجاءِ

ثم استكانَ يرددُ الزفراتِ عن وهنٍ وتلكَ شكايةُ الضعفاءِ

حتى أتتهُ العيس عائدةً وما إنْ كُنّ قبلُ لهُ من السجراءِ

رحمتهُ – وهي عداتهُ – ولحادثٍ متفاقمٍ ما رحمةُ الأعداءِ

فاحذرْ لمصرعِ تربكَ الماضي ولا يثني الحذارُ مقدراً بقضاءِ

يا ليتَ سامتكَ الهوانَ بنو الوغى فاصبرْ لما سامتْ بنو الهيجاءِ

تلكَ الأسنّةُ والقنا اتخالها أزهارَ قضبِ السَّرحةِ الغيناءِ

والبيضُ لامعة وما هي – فاتّئدْ – بجداول العريس ذي الفيناءِ

ومصارع الآساد ليست هذه بمصارع الإدلاج والإسراءِ

دارُ الخلافةِ يممتْ ساحاتها صيدُ الملوكِ اخيفةٍ ورجاءِ

راقتْ مراقي برجها بخليفةٍ لم يعدُ هدي أئمةِ الخلفاءِ

متهللٌ غمرُ النوالِ مظاهرٌ في بردتيهِ: جلالةٍ وبهاءِ

ترتاده الدُّنيا فيرجعُ أهلها من غير سوءٍ باليد البيضاءِ

رحبُ المجالِ مناضلٌ ومناظراً ثبتُ اللقاءِ مسدد الإلقاءِ

حمل الورى رشداً وقد ضلُّوا على نهج الهدى ومحجةِ السمحاءِ

لا تنكر الإرشادَ منهُ إنّهُ لأبو المعالي، جهبذُ العلماءِ

يا فارسَ الهيجاءِ دمتَ لحكمةٍ ومكارمٍ وبسالةٍ وسخاءِ

دوختَ أرضَ الرومِ منتقماً على شحطِ المزارِ ومنعةِ الأرجاءِ

وبعثتها غربانَ زجرٍ لم تطرْ لهمُ بغيرِ كريهةٍ شنعاءِ

لما بدت وبنو الوغى من فوقها والسُّمر نازعةٌ إلى الهيجاءِ

قالوا الرُّبا والأسدُ في آجامها تختاضُ عرضَ اللجةِ الخضراءِ

جاسوا خلال ديارهمْ فكأنها لم تغنَ بعدَ مزاهرٍ وغناءِ

ونواقسٍ تهدي الضلال سميعة وكنائسٍ وجآذرٍ وظباءِ

أما بلاد الشرق نالتْ رشدها بوسيلتين: إنابةٍ ووفاءِ

ألقتْ بمقودها إليكَ ولم تزل من قبلُ ذاتَ تمنعٍ وإباءِ

والعربُ تجهدُ في رضاكَ وإنَّما أخذوا بحظهمُ من العلياءِ

أنت الكرامُ، وعصر ملككَ دهرهمْ والأرضُ - أجمع - حضرةُ البيضاء

ولكَ الخطابُ الفصلُ والفضلُ الذي لم يختلفْ فيه ذوو الآراءِ

ولك القضاءُ العدلُ سدده الذي ولاكَ إذ أولاكَ كلَّ علاءِ

لازلت تكلأُ أمةً جبارها بكلاؤكَ في العراءِ والضراءِ

وبقيتَ للإسلام ما جرَّ الدُّجا لملاءةِ الإصباح فضلَ رداءِ

واهنأ بعيد النحر حلّى جيدهُ سلكا فتوحٍ واقتبالِ سناءِ

وإليكها عذراءَ تنزهي نخوةً بحلي محاسنها على العذراءِ

أسرية لم تدرِ ما يمنُّ ولم تنسبْ بجاورةً إلى الأذواءِ

أحكمتها صنعاً فقال رواتها: عجباً أهذا الوشيُ من صنعاءِ

طالتْ وأحشمها القصور فأقبلت من خجلةٍ تمشي على استحياءِ

إن لم أقلدها علاك فرائداً كالشهبُ بعد سنا وحسنَ رواءِ

وأجيل في ميدانِ شكرِكَ عربها عزاً فلستُ بشاكر النعماءِ

فضحتْ يمينكَ كلَّ جود وابلٍ وثناي عرفَ الروضةِ الفناءِ

وعلى هذه القصيدة حكاية: وهي أن صاحبها أبا العباس لما رفعها لأمير المؤمنين المتوكل على الله أبي عنان، وافق المجلس أن الشريف أبا عبد الله محمد بن القاسم الحسيني العراقي رفع للمتوكل أبي عنان قصيدة مثلها في الوزن والقافية. فلما قرئت قال شيخ بني مرين وهو الحاج أبو مهدي عيسى بن الحسن بن علي بن يحيى بن منديل بن أبي الطلاق العسكري لأبي عنان المتوكل: يا أمير المؤمنين إن قصيدة الشريف أحسن من قصيدة ذلك الحضري! يعني صاحبنا أبا العباس بن عبد المنان. فقال له أبو عنان المتوكل على الله: (ليس الأمر على ما ذكرت، اسكت، فإنك غير عارف بالشعر! إن قصيدة أحمد أبدع من قصيدة الشريف!) وصاحبنا أبو العباس لهذا كله قائم بين يدي أبي عنان المتوكل يسمع ما قال السلطان، وما قال الشيخ أبو مهدي، فحقدها للشيخ أبي مهدي. فلما قام الشيخ أبو مهدي بجبل الفتح من الأندلس على أبي عنان، وقبض عليه، وسيق للمتوكل أبي عنان سر صاحبنا أبو العباس بذلك، ونظم قصيدة ورفعها لأبي عنان يحرضه بها على قتله، فقتله بالرماح وأنا حاضر لقتله.

والقصيدة هي هذه

محياكَ أبهى لا الهلالُ ولا البدرُ وريقكَ أشهى لا الزلالُ ولا الخمرُ

ولحظكَ أنكى لا البواترُ تنتضي وعرفكَ أذكى لا الأزاهرُ تفترُّ

أيا مالكَ القلبِ الذي جارَ في الهوى عليه، ترفقْ، ربما وهن الصبرُ

ويا خلاً حتّى بطيف خيالِه نشرتكَ: هل في الطيف تبعثهُ وزرُ؟

أعندكَ أنّي منذُ أضمرت هجرةً هجرتُ الكرى سهداً سوى سنةٍ تعرو؟

ولم يبقَ مني السّقمُ إلا صبابةً تردد في أثنائها أنـه نزرُ

وهل لي إذا لم أفن فيكَ صبابةً بحكمِ الهوى العذريّ عند الهوى عذرُ

ألفتُ الهوى حتّى استهنتُ صعابهُ وحتى تساوى عندي الحلوُ والمرُّ

وقال وشاةُ الحبُ سحرٌ أصابهُ فهل علموا من لحظِ من ذلكَ السحرُ

لكِ الخيرُ هذا نعت حالي حملةً وشرحاً فهلْ للعطف من بعده ذكرُ

بنفسي نشوانُ المعاطف عاطفٌ كغصن النقا، كالظبي خامره ذعرُ

تجولُ صدورُ السّمرِ دونَ لقائهِ ويسحبُ من أذيالهِ العسكرُ المجرُ

هو الظبي إلا أنّ دوحتهُ القنا هو البدرُ إلا أنّ مطلعهُ الخدرُ

له الودُّ منّي والخلوصُ وعندهُ تجنٍ كما تهوى الملاحةُ أو هجرُ

ألا إن إنعامَ الخليفةِ فارسٍ لنا الصفو من فياضهِ ولهُ الشكرُ

مليكٌ ملوكُ الأرضِ أوحدها الذي به علتِ العلياءُ وافتخرَ الفخرُ

غمامُ الندى الهطّالِ والجوُّ أغبر وليثٌ للعدا والبيضُ قانيةٌ حمرُ

إذا ما تراءى البدرُ يوماً ووجههُ تحيرتِ الأبصارُ أيهما البدرُ

تأخر عصراً في الملوكِ وإنهُ إذا عُدَّ أملاكُ الزمانِ هو الصدرُ

إمامَ الهدى شكراً على النعمِ التي يضيقُ إذا عددتها العدّ والحصرُ

لكَ الجود تردي المارقينَ جنوده بأقطارهمْ من قبل أن تمرحُ الشقرُ

وغاوٍ رمى في هوة الملكِ قاذفاً يد البغي، والرأي المضلّل، والغدرُ

أغارَ على الدين الحنيف بهدٌّ منْ قواعده ما شادهُ القادةُ الغرُّ

ملوكَ الهدى والقائمين بنصره قديماً وسلْ فالبرُّ ينبئ والبحرُ

ورامَ مراماً دونهُ النجمُ سارياً ولم يدرِ جهلاً أنه المرتقى الوعرُ

وهيهات يأبى اللهُ ذلكَ والعلا ودينُ الهدى والملكُ والبيضُ والسمرُ

جنى ثمرَ الإيمانِ بالبغي واعتدى يؤملُ جهلاً أنْ يؤيده الكفرُ

فيا عجباً بعد السعادة نالهُ شقاءٌ وبعد الربح حُمَّ له خسرُ

سعى راشداً شطراً من الدهر وافراً فلما تناهى السعي وأكتمل العمرُ

عصى اللهَ في الشطرِ الأقل، سفاهةً ألا إنهُ ذاكَ الذراعُ أو الشبرُ

ورام غنىً بالصفرِ أو سدَّ خلةٍ وهيهات يغني فقر ذي الخلةِ الصّفرُ

وأمل في أعدادهم كتمَ نفسهِ وإضمارها منعاً فأخرجها الجبرُ

لعلك – عيسى – رمت باسمك برهم وما كلّ عيسى حظُّهُ منهمُ البرّ

دعوتهمُ للغدرِ لما اتخذتهُ سبيلاً فقالوا: بدعةٌ أمرها إمرُ

فكان النصارى منكَ أوفى بذمةٍ وأكرمَ عهداً إن ذا لهو الوزرُ

لئن رُمتَ دُنيا أنتَ قارونها الذي له الحرثُ والأنعامُ والخيلُ والتبرُ

وإن كنتَ للأخرى جنحتَ ولم يكنْ أعدْ نظراً إن شئتَ، وما هكذا الأمرُ

أويتَ إلى تلكَ الرُّبا غيرَ صالحٍ فأدركَكَ الطُّوفانُ وهو الظُّبا البترُ

وجردٌ كأمثالِ الروابي سوانحٌ وغلبٌ كأسدِ الغابِ يقدمها النصرُ

وسعدُ إمامٍ يخدمُ الدهرُ سعدهُ وتجري بما يرمي بهِ الأنجمُ الزُّهرُ

ألا يا أميرَ المؤمنينَ الذي اهتدى بنورِ هداهُ الباهرِ البدرُ والحضرُ

أطعتَ ملكَ الأرضِ ربكَ فاغتدى يطيعكَ فيما رمتَ من أمركَ الدهرُ

وأنتَ الذي جددتَ بعد دروسها مكارمَ قدماً كان أخلقها العصرُ

سننتَ فأوسعتَ البلادَ رغائباً ففي كلِ حيٍ (حاتم) الجود أو (عمرو)

تداعتْ لكَ الآمالُ من كلّ وجهةٍ لغنمٍ وعلمٍ، ذا جزيلٌ وذا غمرُ

تصد عن الأملاك دونه رغبة ولا نجمَ يستهدى وقد طلع الفجرُ

كأني بأقطار البلاد منيبها ومن لم ينب قد قاده الطوعُ والقسرُ

وأنس أرجا تونسٍ أمرُكَ الـذي هو العدلُ يرضي من له الخَلقُ والأمرُ

وجاشت ببطحاها الجيوشُ وأصبحتْ (تقولُ بنو العباسِ قد فتحتْ مصرُ)

لعمري لقدْ زنت الخلافةَ فاغتدتْ يقصرُ عن أوصافها النظمُ والنثرُ

وراقتْ بكَ الدُّنيا جمالاً وبهجـةً فإظلامها فرعٌ وإصباحها بشـرُ

وأنجمها حليٌ ونجوى نسميهـا ثناءٌ بما تولي وإيمانهـا ثغـرُ

ودونكما عذراءَ أجلوُ عروسهـا عليكَ ويرجو القبولَ لـه مهـرُ

لها نسبٌ في السحرِ تعربهُ النُّهى وإنْ قالت الأسماعُ: والدها الشعرُ

وهنئت عيدَ النحرِ والفتحِ إنـهُ لكَ العيدُ منه، والعيدا لهُمُ النحرُ

بقيتَ لدينِ اللهِ ردءاً وعصمـةً فما غيرُ علياكَ – الزمانَ – له ذخرُ

وأنشد لنفسه هذه المقصورة: يمدح أمير المؤمنين المتوكل على الله أبا عنان فارس المريني ملك المغرب، ويصف قتل الأسد بين يديه بالقصر القديم من المدينة البيضاء من فاس، ودخول المختال في الأكرة المعدة للأسد، وهي أكرة مستدارة من خشب، يحركها رجل. في وسطها يطعن الأسد بحديدة، فيضربها الأسد طامعاً في المختال، فتدور به وهو لا يقدر على المختال. بمنع الأكرة. ويصف فيها شبكة صيد الأسد في الفلاة، نصبت لأخذه بالقصر ووصف النهر والدولاب الكبير والروض المسمى بالمصارة

أَلِفَ الجوى مذ بان سكان اللوى صبٌّ يهيج غرامه نفس الصبا

وشجاه إن قيل الألى قد ودّعوا شطَّ المزار بها، وعزّ الملتقى

حفظ الإله عهودهم وسقاهم صوب العهاد ولا سقى يوم النوى

ماذا أفادوا مصحرين بسحرة ظمأ وتضحَى عيسهم رأدَ الضحى

ولقد كفتهم والكفات مدامعي لما ثووا من أضلعي بالمنحنى

قسماً لما راعوا بوشك نواهم روحي، وقد عبثوا بشكوى من شكا

إلا وقد نذروا دماء حرمت ظلماً، أراق الظلم منها والدمى

وبمهجتي منهم محجبة محت قلبي السلو، ومقلتي طيب الكرى

حُسانة نجلاء باهرة السنا خمصانة جيداء عاطرة الشذا

وقوامها كالغصن إلا إنه يهتز بين البدر حسناً والنقا

قالت وقد ودعتها متجملاً إيه بعيشك عن فؤادي هل سلا؟

فأجبتها وأبيك لا أسلو، ولا حل الفؤاد هوى سوى هذا الهوى

حتى يرى فقراً بساحة بلدة وبها الخليفة فارس مغني الورى

ملك نمته إلى المكارم عصبة كرمت أواصرهم وعزوا منتمى

ورث المعالي عن عليّ المجد عن عثمان عن يعقوب أعلام الهدى

متهلل ضاهى الغمام مواهباً ورغائباً، فوني الغمام وما ونى

قطعاً حبال رجائك ممن دونه ملكاً فكل الصيد في جوف الفرا

ألف العصا بحماه، وامتط سابغاً امداحه غرراً، فنعم الممتطى

وأبي معارفه الجليلة، إنها بحر فرات لا تكدره الدِّلا

والشمس من أنواره والفجر من بناره، والطود من ذاك الحجا

والنجم في ظلم الوغى من رمحه ما ضل من أثنى عليه، وما غوى

غمر، جواد، يستضاء بهديه وافى كما تهوى المكارم والتقى

متوكل، بحر، وليس بجعفر افضاله، بل زاخر جم اللُّهى

تتضاءل الأملاك دون مقامه والشهب تخفى ان بدت شمس الضحى

يخشى ويرجى، عابساً أو باسماً وكذاك ذو البأس المصمم، والندى

يا غيث أنت كجوده متبجساً لكن خصصت وعم أقطار الدنى

يا بدر أنت كوجهه متهللاً لكن نقصت ودام مكتمل السنا

كم من جواد راجياً أولى الغنى عفواً، ولا كأبي عنان مرتجى

ولكم يرى يوم الوغى من فارس وكفارس يوم الوغى ما أن يرى

ذلت لبطشته الأسود وإنها لتذل إذعاناً لبطشته الطلا

وضُبارمٍ رحب اللَّبان تقله   صهبٌ متينٌ خَلقها، عبل الشوا

يفترُّ عن نابٍ كأطراف القنا   أيضاً، وينضو مخلبا حدَّ الشبا

فتكت به بالقصر سُمر رماحه   بأكفِّ أسدٍ، دوَّخت أسد الشرى

أمسى صريعاً والدماء سُلافة   أتراه سُكراً مال من تلك الطلا

وثنى على زأراته كشحاً، وقد   كانت يردِّدها فرادى أو ثنى

لكن ألسنة القواضب أظهرت   ما أضمرت جنباه من سرِّ الحشا

ولقد رماه، قبل مصرعه، الردَّى   من معضلات مكابديه، بما رمى

ومخاتل في جوف دائرةٍ طوت   أضلاعها منه على شهم فتى

يحكي بها رألا ببيضة سبسب   لم تنفرج عنه فأنفذها كوى

يمشي الهوينا وسطها، فتقله   عدواً، وما أن تشتكي ألم الوجى

حسب الغضنفر مرتقاها كعبة   فدنا يطيل بها الطواف، وقد سعى

ولربما ألقى عليها لامساً   بأكفه؛ وسما، وقبَّل إذ سما

لكنه خبثت سرائره فلم يحمد على الإلمام منه بها الجزا

عجباً له وبجأش طفل لم يهب أسد الشرى، وقد استشاط وقرددا

هذا ولم يُبصر هناك بملجأ واقٍ، وقد تركوه منفرداً سدى

قد كان طلّ دم له لما رنا أسد العرين له غضوباً، وارتمى

لو لم تقم بالثار منه أساودٌ كانت هنالك كامنات لا ترى

منهنّ فاغرةٌ له أفواهها بأكفِّ كركبة ومنها ما التوى

لم تُرخ شد وثاقه حتى ثوى تابوت مقبور وقد ظن الشوا

ومذرب الروقين أصفر فاقع راق النواظر نظرة، لما بدا

ما زال يدعو للنزال أسامة ولقد أشار بلفظه لما دعا

ولقد أراه مكان مصرعه وقد أدمى بساح القصر ينكتُ في الثرى

ولقد أطال وقوفه مستقبلاً حذر الهزبر مبارزاً، حتى انبرى

وعدا له، والظن يقضي أن يرى وقد اعتلاه، فكان عكساً ما قضى

حالت عليه صدمة من حادث تنسيك صدمة حادث يوم الوغى

أعجب بها من صدمة قد عفرت لبد الهزبر وأوهنت منه القوى

لا تلح روق الثور إن أبصرته عن جانب الليث الطعين، وقد نبا

ما كلَّ دون كلاه، لكن ساعة بقيت له، ولكلِّ عمر منتهى

فدعته في دعة إلى أمثالها ولتعذرن الليث يا ملك الهدى

أعدى فريسته عليه قولك: ابق ذا، وقولك للغضنفر: لا لعا

عاجلت ذا هلكاً فلم يعجز وقد أبقيت ذا مناً فجاء به المنى

أن الإله قضى بأن يجري القضا طوعاً كما شاء المطيع المرتضى

وعلاكم ما حادث بمقاومٍ لأبيه لولا أن أردت به الردى

ولقد رأت منه العيون عجيبة راقت وقد أبلى النواظر والنهى

فأنجه جنَّات المصارة خالداً فيها فبالجنات يُجزى ذو البلا

أحسن بها من روضة غناء قد غنَّى الحمام بها طروباً أو شدا

حاكت لها الأنواء مطرف سندس أرج وشاه يد الربيع بما وشى

وبجانب البيضاء منها مُرتقى جبارة الأرجاء سامية الذرا

كرحى الصياقل ما سمت لتديرها رجل، ولا نسبت لإمهاء المدى

أترى حسام النهر جلّل متنه صدأ فما تنفكُّ تجلوه جلا

ناعورة، لا بل أبثك أنةً وغدت تكنفه البروج وقد رقا

فلكٌ مضى في الروض ما حكمت به أدواره، والقطب منه وما اقتضى

فقضى برفع الماء إلا إنه قد خفّض الادواح عيشاً والرُّبى

حُسن بديعٌ في حمى ملك له حُسن الزمان، وقام في أبهى حُلا

يا أيها الملك الذي أضحى به دينُ الإله قرير عين والعُلا

هيهات لا يجري عدوّك جده يأبى وحقك ذاك جدك والقضا

وعلاك لو ناواك أجدل كاسرٌ لتخطفت أشلاءه كدر القطا

إن الذي لما تنزل متوكلاً قدماً عليه لكافلٌ لك بالمنى

الله أولاك السعادة فليفض كمداً حسودكها ويأبى من أبى

أغرق بطوفان الكتائب عصبة عاذت بمعتصم الجبال من العدا

أشفي صدور السمر واردةً دما تلك الصدور، وسم هواناً من عتا

انهد لأرض الروم، وارم غُواتهم بالشُّهب من أطراف ميّاد القنا

فكأنني بملاذهم، وأبحت ما لم يلف للإسلام منها للبلى

وسبيت بيض ظباهم قسراً على حكم الظبا وتفرقت أيدي سبا

واستشرفتك لمرتجى إنقاذها أعلام ذات النهر حمصٌ، والقرى

قسماً لئن نسأ المهيمن لي مدى حتى تحل بأفقها، بدراً بدا

لتسوغني من بديع جنابها ما بزّ آبائي بها، فيما مضى

وإليكها درراً فإنني منتقٍ ما راقَ منها للنظام، وما غلا

مقصورة بخيام فكري أعرضت عمّن سواك، وأمّتك على حيا

حسناء يهوى كل عضو لو غدا أذناً، وقد تليت تصيخ لمن تلا

تثني عليك عُلاً بأطيب نكهة مما به أثنى الرياض على الحيا

لا زلت، والأقدار جارية بما تهواه، ما كرَّ الصباح على الدُّجى

وبلغت ما ترجوه من أمل، على عجل، ودام لك السعادة والبقا

وقال في رثاء الفقيه الكاتب محمد بن محمد بن أحمد بن أبي عمرو التميمي التلمساني

مَنْ كان يبكي ماجداً فليجدْ بالمدمعِ السكبِ على الحاجبِ

يمَّم وجه المجد فاغتالهُ صرفُ الرَّدى لم يخشَ مَنْ حاجبِ

عينٌ أصابتهُ ويا قربها في الوجهِ بين العينِ والحاجبِ

وقال في السيف الذي بمنار جامع القرويين، وكان نظمه قد تقدم التاريخ بمدة

أأنكر السيفَ بالمنارِ بفاسٍ قائلٌ إنّ ذاك داعي اغتمام

لا يرعك َ الحسام سل عليها جنةُ الخلد تحتَ ظلِّ الحسامِ

و عرض له الشيطان فيما بين فاس ومكناس فقال

أكلتم السابح في لجه * ولم تفلتوا ذوات الجناح

هذا وقد عرضتم للفنا * فكيف لو خلدتم يا وقاح

فأجابه ابن عبد المنان ارتجالا

بالعقل قد فضلنا ربنا * وسخر الفلك لنا والرياح

والحوت والطير متاع لنا * فما لنا عليهما من جناح

وقدم مكناسة مع أبي العباس أحمد الحريني بن أبي سالم، ونزل ابن عبد الحنان في مارستان مكناسة لكونه كان خاليا فكتب له السلطان أحمد المذكور هذه الأبيات

يا شاعرا قد خبرناه فقاض لنا * بالشعر والكتب من تلقاه بحران

نبئت أنك قد بدلت دارك في * مكناسة فشجا من أشجاني

مازال يتبعك الغاوون منذ زمن * حتى لقد همت في وادي المرستان

فأجابه ابن عبد الحنان بقوله

لما بدا لي في حمى مكناسة * مثوى الذين مضوا من الأتراب

أيقنت أني لست ذا عقل بها * أتعبت نفسي من هوى وتصابي

فتركت داري لم أعرج نحوها * ورأيت مارستانها اولى بي

وعطس السلطان المذكور يوما وكان ابن عبد المنان حاضراً فقال

يرحمك الرحمن من عاطس * وليهنك الحمد على عطستك

ويغفر الله لنا كلنا * وليسبل الستر على حوبتك

ودخل على مخدومه السلطان أحمد الحريني المذكور بمساء فقال له: مولاي أنعم الله صباحك

فأنكر السلطان ذلك وتوهمه سكران فأنشأ الكاتب يقول

صبحته عند المساء فقال لي * ماذا الكلام وظن ذاك مزاحا

قلت له إشراق وجهك غرني * حتى توهمت المساء صباحا

وقال رحمه الله في كتاب (الشفا) للقاضي عياض

علماء الحديث كم خلصت في * مدح خير الورى لهم أغراض

بمعاني الرسول تجلى وتتلى * عندها تنعش القلوب المراض

كلهم عالج السقام ولكن * ما اتى بالشفاء إلا عياض

وجاء رحمه الله ببيت الكتاب وفي عينه خضرة

أيا أحمد المرتضى للعلا * ومن حاز في صنعه كلّ زين

ترائيت في العلم روضاً نضيراً * فلا تنكرن خضرةً حول عين

وله فيه

لك الخير عدم السبك أبدل ناظري * زمردةً مخضرةً من لجينه

فلا تنكروا ما راع من ذاك إنني * لصائغ تبر القول ناقد شينه

ولا عجب إن أعوز السبك صائغاً * فأوجب عدم السبك خضرة عينه

وقال رحمه الله فيمن يعرف بالصهّال

ألا ربّ فرسان توافوا فأدركوا * مع الليل أوتاراً لهم دون إمهال

وأجروا بصهّالٍ كميتاً كما ابتغوا * فلا تنكروا الإجراء منهم بصهّال